شيء آخر هو الايمان ، وذلك لاسباب علمية مستمدة من حاجتنا الى العيش ، والى ممارسة الحياة العملية · ولا بد ان نبني حياتنا على هذا المزيج من العقل والشعور الذي يشكل الطبيعة البشرية ، فلا بد ان نعمل بوحي من واجب اخلاقي ولا بد ان نستشعر احتراما دينيا لشيء في الكون اعظم ، كما لا مندوحة لنا من الاعجاب بجمال في الاشياء لا يمكن تعليله علميا ، وان الكون يدار بشكل ما بقانون اخلاقي · وما دام العلم يعجز عن اثبات او نفي الحقيقة الواقعة فلا بد ان نركن الى الايمان ·

الرومنسية ترفض العقل

بدا هذا الدفاع العقلي من جانب كانت عن الايمان مقنعا ، واستقبله الرومنسيون بحماس · فعندما نادى كانت بان العلم محدود الافق ، فقد فتح الباب واسعا لعدد لا يحصى من الطرق الاخرى اللاعقلانية في الوصول الى المعتقدات الفلسفية والاخلاقية والدينية · وبالرغم من ان فلسفة كانت «النقدية» هي فلسفة ليبرالية تقدمية في الجوهر ، تتصدى لفكر الاقطاع ومفاهيمه الجامدة، وتعبر عن قوى البورجوازية الالمانية الصاعدة والضعيفة في نفس الوقت ، الا انها استغلت في مراحل تالية ، وبالاخص في النصف الاخير من القرن التاسع عشر لمساندة فلسفات الردة اللاعقلانية وكأنما اصبح نقد كانت للعقل جواز مرور لشق ممرات جديدة ، عبر مجاهل الحدس اللاعقلانية (٨) · فاذا كان « النقد » قد اثبت ان كل ما يمكن معرفته عن طريق العقل يقف عند الظواهر ، فقد ضاعت سدى ، كل جهود العلماء ومكتشفات العلم ، واصبحت كل الطرق ، غيبية كانت او حدسية او عقلية ، تستوي ، وتستحوذ على نفس القدر من الاحترام · وبذلك اقامت الفلسفات الرومنسية الرجعية ابنيتها الفكرية على وهم « نقد العقل » داعية الى ان الانسان في جوهره ليس عقليا ، وان طبيعته تكمن في الاساس في الغرائز والمشاعر والاحاسيس المبهمة · وبعبارة اخرى فان الشاعر او القديس اصدق من العالم · وليس الدين علما يقام البرهان على صحته بل شأن من شؤون القلب · والاخلاق ليست علما بل هي في الجوهر الارادة الطيبة ، وليس الفن مسألة شكل وتركيب بل غنى في العاطفةوالشعور · والمجتمع ليس مشروعا جامدا مؤسسا على المصلحة الذاتية بل كائن حي كبير ، تشد اعضاؤه بعضها البعض ، ذو سعي حثيث لتحقيق غايات ومثل تبدو غامضة مبهمة ·

الرومنسية بين الثورة والثورة المضادة

ومع ذلك فلم تكن الرومنسية في منبتها حركة للردة او مناهضة العقل ، بل